Journal of Alasmarya University
Volume 11, June 2009

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الحادي عشر، يونيو 2009

# خطاب الزاوية في الثقافة الليبية
## الأسمرية نموذجاً

أ. د. عميراوي الحميده*

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله حمدَ الشاكرين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وبعد.

فإن الهدف من تناول هذا الموضوع هو عرض لجانب هام من الثقافة الليبية في بعدها الروحي الصوفي، وبخاصة في أهم جوانبها المتعلقة بالحوار والتسامح، وبعبارة أخرى فالهدف هو مقاربة فهم وتأصيل لهذا الجانب الذي لا يزال أحد الظواهر الرئيسة السائدة اليوم في الحياة الاجتماعية الليبية، انطلاقا من الزوايا. وفضلنا أن يكون عرض هذا الموضوع مؤسسا على النقاط الآتية:

**أولا**: مفهوم التسامح.
**ثانيا**: تراكمات تاريخية.
**ثالثا**: مصادر الثقافة الليبية.
**رابعا**: مكانة الحياة الروحية وجهود عبد السلام الأسمر في الثقافة الليبية.

## أولا: مفهوم التسامح

تتردد كلمة التسامح في مناسبات كثيرة، وفي مستويات متعددة؛ إذ إن لهذه الكلمة أكثر من مدلول ومفهوم، فهي تكون تسامحا مذهبيا دينيا، وتسامحا روحيا صوفيا، وتسامحا طائفيا عرقيا، وتسامحا شخصيا فرديا، وتسامحا أبويا عائليا. وعلى هذا

* جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر.

الأساس يكون فعل التسامح أخلاقيا أكثر مما يكون سياسيا أو اقتصاديا. وقد يكون التسامح قناعة، أو عرفا، أو تطبيقا لقانون، أو لمصلحة. والتسامح لا يعني الاستسلام وقَبول الآخر الدخيل الجائر. وقد جاء في لسان العرب[1] أن المسامحة هي المساهلة. تسامحوا تساهلوا. وجاء في الحديث الشريف: السماح رباحٌ. وجاء في الشعر العربي:

إذا ما جَلَّ خطبٌ فسامحتْ به النفس يوما، كان للكره أذهبا

فالتسامح في اعتقادنا هو أحد مضامين الثقافة التربوية لأي شعب ما، ومرتبط بسلوكيات ومصالح الناس، أفرادا وشعوبا، لأن التسامح وسيط خير، ووسطية بين طرفي الغلو. والسؤال الذي يمكن طرحه في هذا المقام هو: ما المكانة التي يحظى بها التسامح في الثقافة الليبية؟ وبالتالي ما دور الزاوية، بعامة. ودور الشيْخ عبد السلام الأسمر بخاصة[2] في إرساء تقاليد التسامح في المجتمع الليبي؟

فمن خلال ما كُتب عن آثار الشيْخ عبد السلام الأسمر وتآليفه ومنها: العظمة في التحدث بالنعمة، والأنوار السنية في أسانيد الطريقة العروسية، والتحفة القدسية لمن أراد الدخول في الطريقة العروسية، ونصيحة المريدين في الأولياء الصالحين، فمن خلال ذلك يتبين أنه كان يدعو إلى الخير والسلام. وسنعرض لاحقا جانبا من هذا الدور.

## ثانيا: تراكمات تاريخية

تعد ليبيا من البلدان التي استوطنتها أجناس مختلفة. وعاشت وتعايشت فيها ثقافات متعددة؛ كالمصرية والإغريقية ذات البعد العقدي والفلسفي، والفينيقية-الكنعانية ذات النشاط التجاري والعمراني، والرومانية ذات المنشآت العمرانية والحربية، والعربية ذات الإسهام الديني والحضاري، والتركية العثمانية ذات الإنجازات السياسية -العسكرية البحرية، والأوروبية الغربية ذات المدنية العلمية والعلمانية؛ كلّ هذا ولّد في ليبيا مخزونا

1- ابن منظور، لسان العرب المحيط، المجلد الثالث، دار الجيل بيروت، 1988، ص. 198

2- هو عبد السلام بن سليم الأسمر الفيتوري 880-981هـ/1475-1576م ولد في مدينة زليتن، من أسرة عاشت في المغرب الأقصى عهد الدولة الإدريسية، وتوطنت في ليبيا، وهو من قبيلة المريقات المشهورة بالعطاء الديني والعلمي.لمزيد من المعلومات عن حياة عبد السلام يراجع: طاهر أحمد الزاوي، أعلام ليبيا، ط. 2، الفرجاني، ليبيا 1971، ص-ص. 214-217.

وبرغم تعرض الزاوية الأسمرية إلى نهب، وتلف ما فيها من كتب بلغت 500 مجلدا إثر مقتل عمران بن عبد السلام الأسمر عام 995هـ إلاّ أنها انتعشت وبقيت منارة عبر أجيال.

ثقافيا متميزا. كانت جوانب منه متكاملة وجامعة، وجوانب أخرى ظلت متقاطعة فيما بينها، وكلها كانت متصلة مع غيرها من الثقافات.

وقد تحكمت في هذا المخزون الثقافي عدة فواعل تاريخية، تبلورت في أكثر من خطاب؛ مثل الخطاب السياسي الذي عرفته ليبيا من خلال أنظمة حكم سادت فيها ثم بادت. والخطاب المذهبي الفقهي، سواء أكان سنيا مالكيا، وحنفيا، أم أباضيا، عرفته ليبيا خلال الفتوحات الإسلامية وبعدها. والخطاب الروحي الصوفي، سواء أكان عروسيا أم عيساويا، الذي انتشر في المجتمع الليبي بواسطة الزوايا.

وعلى هذا الأساس يمكن طرح السؤال الآتي: ما علاقة هذا الخطاب المذهبي والروحي بالتسامح؟ وما أهم مصادر هذه الثقافة الليبية؟ وما دور الشيخ عبد السلام الأسمر في هذه الثقافة؟

## ثالثا: مصادر الثقافة الليبية

مصادر الثقافة الليبية ثرية ومتعددة، ويمكن حصرُ بعضها إجمالا في أمرين، الأول ثقافي تاريخي، والثاني تراثي تأليفي. فالأمر الأول يُعرفُ من خلال الموجات الثقافية التي تعاقبت على ليبيا؛ ذهابا وإيابا[3]، من المشرق والمغرب، التي على أساسها يمكن القول إن المجتمع الليبي مشدود من الناحية الفكرية والاجتماعية إلى اعتبارات هي:

1. العرقية التي تشكلت من القبائل والأعراش والأسر الليبية العريقة. وكذلك من الجاليات الأجنبية؛ كاليهود والمسيحيين والزنوج، التي وجدت الخصب والمقام الطيب في ليبيا، نتيجة لما كان عليه الليبيون من تسامح وتقبل للآخر، بالحوار الهادئ، والعطاء المتبادل.
2. المذهبية الفقهية، خاصة المالكية والأباضية.
3. الروحية الصوفية التي قام بها شيوخ طرق، ومنهم عبد السلام الأسمر.
4. الأفكار الحديثة المتأثرة بالعلوم الوضعية.

3- عرفت ليبيا ثقافات قديمة متعددة، هي من: مصر، وفارس، والجزيرة العربية، وفينقيا، واليونان، وروما، وبيزنطة، وكذلك من إفريقيا. مثلما تأثرت مجتمعات أوروبية وآسيوية بالثقافة الليبية (اللوبية)، والبونيقية.

والأمر الثاني لمصدر الثقافة الليبية يتمثل في آثار المساجد[4] والمدارس والزوايا المنتشرة في ليبيا، التي أسهمت في تطوير التعلم والتعليم[5]. وكذلك في وفود العلماء والأولياء والرحالة الذين زاروا ليبيا. ويتمثل كذلك في دور أبناء ليبيا، طلاب العلم، الذين كانوا يقومون برحلات إلى البلاد الإسلامية، مثل مكة والمدينة، والبصرة، والقيروان، وتلمسان، وفاس، وغرناطة، ويعودون منها بكنوز معرفية معنوية ومادية.

وكان من الليبيين الأوائل الذين سافروا إلى بلاد المشرق محمد بن معطير الجاوني الذي استقر في البصرة من عام 135 إلى عام 140هـ/752-757م، حيث تلقى العلم على يد شيوخ الأباضية[6]، وبعودته انتشرت المدرسة الأباضية في ليبيا.

وكان من الليبيين الأوائل أيضا الذين سافروا إلى بلاد المشرق والمغرب علي بن زياد العبسي الذي ارتحل من طرابلس إلى بلاد المشرق، ثم إلى تونس عام 150هـ/767م وأدخل معه موطأ الإمام مالك إلى إفريقية، وبذلك يعد مؤسس المدرسة المالكية فيها[7].

---

4- بحسب ما ذكره أحمد مختار عمر، النشاط الثقافي في ليبيا، منشورات الجامعة الليبية، كلية التربية، ليبيا 1971، ص-ص. 102-105 أن ليبيا كان بها 14 مسجدا قديما، وكانت بمثابة 14 جامعة في وقتنا الحالي.

5- ذكر ابن سلام الأباضي أن أول من علم القرآن الكريم في ليبيا، وبخاصة في جبل نفوسة هو عمر بن يمكتن. لمزيد من المعلومات يراجع: عيسى رمضان القبلاوي، بدايات التخلف في الوطن العربي، منشورات مركز جهاد الليبيين، 2005، ص. 270. ( نقلا عن ابن سلام الأباضي، تحقيق ف. شفارتز، وسالم بن يعقوب، دار اقرأ، بيروت 1985، ص. 149).

6- أسس جابر بن زيد الأزدي المذهبَ الأباضي (ت 93هـ/711م)، وإن كان ينسب إلى من بعده عبد الله بن أباض (ت 85هـ/704م).

7- عرف مذهب الإمام مالك بن أنس الأصبحي -رحمه الله تعالى- (ت 795م). طريقه نحو الغرب الإسلامي بواسطة طلبة بلاد المغرب الذين رحلوا في منتصف القرن الثاني الهجري إلى المشرق؛ وتتلمذوا في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم على يد إمام دار الهجرة مالك بن أنس، ولما رجعوا إلى أوطانهم حملوا معهم كتابه الموطأ، وفقهه وآراءه، ومنهجه في استنباط الأحكام. وكان منهم بالإضافة إلى علي بن زياد العبسي، البهلول بن راشد (ت 183هـ)، وهو وَتَدٌ من أوتاد المذهب المالكي في بلاد المغرب، وعَابِدُ بلده، وعلي بن زياد التونسي (ت 189هـ)، وزياد بن عبد الرحمن الأندلسي المعروف بـ: شَبْطُون (ت 194هـ)، الذي يُعتبر أول مَنْ أدخل المذهب المالكي إلى الأندلس، وكان أهل الأندلس قبل ذلك على مذهب الإمام الأوزاعي (ت 157هـ)، وبواسطة شَبْطُون انتشر المذهب المالكي هناك، ثم نُقِلَتْ بذور المذهب المالكي من الأندلس إلى فاس بواسطة جماعة =

وبعودة هؤلاء الشيوخ إلى ليبيا وهم مزودون بأمهات الكتب صاروا وكتبهم مرجعَ أغلب الليبيين. وكانت قناعة هؤلاء الشيوخ في ما كانوا يقولون وهو: «من حمل إلى بلد كتابا ولم يكن فيه فكأنما تصدق بألف حمل دقيقا»، و«من ضيع كتابا كمن ضيع خمسة عشر عالما»[8]. إذ إن من أهم علوم الكتب التي كانت مرجع الثقافة الليبية والتي حظيت بإقبال الليبيين على اقتنائها؛ كانت في علوم القرآن الكريم، والحديث الشريف، والفقه وأصوله، واللغة وآدابها، وفي التصوف.

ومنهل التصوف في ليبيا كان من مصادر كثيرة؛ منها رسالة فضل مكة لأبي الحسن البصري (ت 110هـ/729م)، وقوت القلوب ومعرفة الطريق إلى معاملة المحبوب لأبي طالب محمد بن علي المكي، ورسالة القشيري، والصلاة المشيشية لعبد السلام بن مشيش (ت 625هـ/1227).

ونذكر من الشيوخ الذين تركوا آثارا صوفية أحمدَ بن عروس الذي يقال إنه عاش في الجزائر، ودرس بها في ميلة، وهو دفين تونس (868هـ/1463م). وقد سلك نهجه عبد السلام الأسمر الفيتوري، الذي تلقى تعاليمه على شيخه أبو راوي الفحل؛ وشيخ هذا الأخير كان أحمد بن عروس. وقد طور الشيخ عبد السلام الأسمر طريقة الشيخ أحمد بن عروس ونشرها في أوساط المجتمع الليبي، الذي تقبلها بشغف لما لها من خصال حميدة، مثل نشر مبادئ التسامح، ونبذ التطرف.

ومن الكتب التي كان لها أثر كبير في التصوف دلائل الخيرات لمحمد بن سليمان الجزولي (ت 869هـ/1465م)، بجانب آثار شيوخ كثيرين أمثال الشيخ العباس أحمد بن محمد أبي يوسف الدهماني (ت 893هـ/1488م)، الذي لجأ من تونس إلى ليبيا هروبا من متابعة السلطان له، وكان يتولى مشيخة ركب الحجيج نظرا لمكانته. ومن الكتب المؤثرة في الحياة الاجتماعية الليبية عقيدة التوحيد والتسديد؛ وأم البراهين لمحمد السنوسي (ت 895هـ/1490)، والحكم العطائية لابن عطاء الله تاج الدين (ت 709هـ/1309م)، وغيرها من أمهات الكتب. وكذلك فيما ما تركه شيوخ البركة والكرامات من آثار، أمثال الشيخ محمد بن عيسى المغربي (ت 913هـ/1507م) الذي

---

=

من العلماء الوافدين على المولى إدريس إثر ثورة الرَّبَضِ (محتوى هذه الإحالة من كلام الدكتور نذير حمادو، أستاذ محاضر في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر 2008).

8- لمزيد من المعلومات يراجع: عيسى رمضان القبلاوي، المرجع السابق، ص. 273

بفضله انتشرت الطريقة العيساوية في كامل بلاد المغرب العربي.

وهـذا التـصوف الإسـلامي متميـز عن الأنواع الأخرى من التصوف، وإننا نشاطر عـباس محمـود العقـاد الـرأي حـين قـال: «وهذا الفارق الفاصل بين الصوفية الإسلامية والـصوفية الدخـيلة، هـو الـذي أوهـم فريقا من المستشرقين حين قالوا إن التصوف كله مـستعار مـن الهـند وفـارس أو مـن الأفلاطونـية المحدثة، وهو قول يصدق على مذهب الحلـول ومـذهب وحـدة الوجود، ولكنه لا يصدق على مذاهب الصوفية التي تقوم على الحـب الإلهـي والكشف عن الحقائق من وراء الظواهر، فهذه الصوفية أصيلة في الإسلام يـتعلمها المـسلم مـن كـتابه العزيـز، وليست من فلسفة البراهمة أو فلسفة أفلوطين، لأن أشـواق الروح الإنسانية قسط بين بني آدم لا تنفرد به أمة من الأمم، ولم تستوعبها عقيدة واحـدة كل الاستيعاب دون سائر العقائد الدينية»[9]. وكان عبد السلام الأسمر قد سلك التصوف الإسلامي السني من دون التأثر بالتصوف الدخيل من عوالم غير العالم العربي. ولهذا نلمس في مواقفه التسامح ووساطة الخير.

ويـؤكد المتـصوفون علـى دوام العـبادة والـتفكير في الله والذكـر والـصلوات والاعـتكاف، وقد جعلوا لأنفسهم درجات ومقامات يرتقونها. وكان هذا يتوقف على ما وصـلوا إليه من طهر وصفاء ذهني وروحي. وكان الهدف من السعي للوصول إلى مرتبة متقدمة في الارتقاء هو ليكوِن العبد العارف أكثر اقترابا من الذات الإلهية، وأكثر استعداداً لاكتشاف نواميس وخبايا حجبت عن غير المنتمين لهذه الفرقة.

وهنا يكمن أحد الفوارق بين عالم الفقه وعالم العرفان، إذ وقع الإنكار من بعض العلمـاء علـى المتصوفة الذين يذكرون الله بلفظ الجلالة «الله» أو «هو» بصيغة الغائب، وهم وقوف يتمايلون ذات اليمين وذات الشمال، وأحيانا يصاب أحدهم بالجذب فيصرع بـين القوم، أو يأخذ في هز رأسه يمينا وشمالا. وقد ذكر لنا البرموني[10] المناقشة التي

---

9- عباس محمود العقاد، التفكير فريضة إسلامية، مكتبة رحاب، الجزائر.

10- هو كريم الدين البرموني المصراتي ولد عام 893هـ وتوفي في نهاية القرن العاشر الهجري، وهو من الأوائل الذين كتبوا عن عبد السلام الأسمر، المشهور بكتاب روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في جمع بعض مناقب صاحب الطار، وهو كتاب يتضمن معلومات تاريخية عن قبائل وأعلام، لمزيد من المعلوكات يراجع: أحمد مختار عمر، النشاط الثقافي في ليبيا، المرجع السابق. ص. 157، 159.

حصلت بين الإمام محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحطاب[11] والشيخ عبد السلام الأسمر عندما حضر الأول من مصر لزيارة والده في تاجوراء، فحضر إلى لقاء الشيخ عبد السلام الأسمر في مسجد الناقة داخل مدينة طرابلس، فقال له منكرا عليه: يا عبد السلام ذكروا لنا أنك تؤم الفقراء وتقول معهم بلفظ الجلالة فهذا ذكر غير مشكور؛ لأنه بدعة لم تنقل عن السلف، وأن الذكر لا أجر له. فقال له الشيخ عبد السلام الأسمر: عمن نقلت ذلك؟ فقال: نقلته من جواب للعز بن عبد السلام. فقال: يا محمد بن محمد دعني في حالي فهذه ساعة لا يسعني فيها إلا ربي، فلما سمع الإمام الحطاب ذلك تحركت نفسه وامتلأ غيظا وغضبا، وقال: ما هذا جواب، وما هذه طريقة الصالحين!! فقال له الشيخ عبد السلام: انته عما أنت تقول وإلا أطيرك بعلمك المحطب الذي أفنيت عمرك في تحطيبه ولم تدرك له حقيقة.

تدلنا هذه المناقشة التي جرت بين أكبر العلماء في عصره، صاحب المؤلفات المشهورة في الفقه، وخاتمة علماء المالكية في الحجاز، وبين المتصوف الكبير الشيخ عبد السلام الأسمر، صاحب الطريقة الصوفية التي انتشرت في شمال أفريقيا وجنوبها، رحمهما الله تعالى، تدلنا على الخلاف بين علماء الفقه والمتصوفة في الطريقة التي يلجأ إليها العبد للتقرب من الله تعالى، فالعلماء يرون أن الوصول لا يتم إلا بالعبادة التي شرعها الله، أما المتصوفة فلهم وسائلهم بجانب العبادة التي يرونها موصلة إلى ذلك. يفهم هذا من استدلال الإمام الحطاب بقول العز بن عبد السلام، وهو من أكابر العلماء، ومن جواب الشيخ عبد السلام الأسمر للإمام الحطاب: أفنيت عمرك في طلب العلم ولم تدرك له حقيقة، فكأنه يعني أن هناك حقائق لا تدرك بالعلم والفقه، وإنما تدرك بالوجدان والإحساس بالقلب[12].

إن إماطة اللثام عن أسرار السعي للارتقاء ليست في متناول أي أحد لم يسلك منهجاً صوفيا معينا، وهو المنهج الذي يتقيد به المتصوفة[13]. وهذا الأمر ينطبق تماما

---

11- وهو محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحطاب (الصغير، ت 954هـ)، وهو متصوف مالكي. ووالده هو محمد بن عبد الرحمن الحطاب (الكبير، ت 945هـ) متصوف مالكي.

12- نقلا عن فرحات عبد الوهاب، أستاذ محاضر في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر 2008، من عمل فرقة بحث بعنوان: (تاريخ التصوف في الجزائر من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري)، تحت إشرافي (2005-2008).

13- الصادق الخوني، (موقف أبي زيد القيرواني من الصوفية)، أعمال ملتقى في أفريل 1993، منشورات =

على سلوك عبد السلام الأسمر رحمه الله، الذي كان من دعاة أن العبودية لله وحده هي حرية، وبهذا يكون التغلغل في ممارسة عبادة الله الحق. على خلاف ما ذهبت إليه بعض الفلسفات الاجتماعية من أن العبودية هي رق ومصادرة حقوق الفرد.

والتصوف -في بعده الروحي- بصرف النظر عن أصوله والمؤثرات التي غذته، فهو قد حل بشكل واضح في القرن الثاني للهجرة /التاسع الميلادي، وكان في شكله البسيط الذي هو زهد وتقوى وروحانية. ثم سلك طريق التعقيد والتمذهب والتفلسف واستنباط الطرق الموصلة إلى الله (الطرق الصوفية).

وهنا تجدر الإشارة إلى أنه بعد اعتناق سكان المغرب الإسلام استهوى عدداً منهم الجانبُ الزهدي الروحي أكثر مما استهواهم الجانب العقلي العلمي، والتصقت بالزهد فئات متأثرة ومعجبة بحياة المعتكفين بمثل ما عرفه التاريخ المسيحي[14]. وهذا المنحى لم يقترب منه الشيخ عبد السلام الأسمر الفيتوري.

إن الأسس العلمية والفكرية التي قام عليها التصوف هي وضعُ تصور للكون وللحياة، ولما يتعلق بالفعل الإلهي والفعل الإنساني على نحو ما شاع عند علماء العقيدة وعلماء الكلام.

وتنبغي الإشارة إلى أن من المبادئ العلمية التي قام عليها التصوف في بعض أنواعه وضروبه الأخرى هي الإيمان بمذهب الحلول (Infusion)[15] أو (الكمون) ووحدة الوجود (Panthéisme) [16]، وهما خطان يختلفان مع نظرة الإسلام اختلافا واضحا. وعلى الجملة يمكن أن يقال إن الإسلام ينكر هذين المذهبين المنتشرين في الصوفية بعمومها، والحلولية والوجودية بخصوصهما؛ فلا يقر الإسلام بحلول الله في جسد إنسان، ولا يقر مذهب القائلين بفناء الله في الذات البشرية، وإذا تحدث المتصوف المسلم عن الفناء إنما قصده بفناء الشهوات أو فناء الأنانية وحلول محبة الله محلها في القلوب، أي أن فناء العبد عن نفسه يكون ببقائه في صفات الحق[17]. وهذا ما عمل به

---

=

مركز الدراسات الإسلامية، القيروان، ص. 261

14- الصادق الخوني، ص. 264.

15- الحلول يعني اتحاد الشيئين اتحاداً تاماً.

16- وحدة الوجود تشير إلى حالة نهائية مثالية غير قابلة للتدرج.

17- لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: أبحاث في الفكر والتاريخ، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر =

عـبد الـسلام الأسمـر حين التزم بالتصوف الإسلامي السني، من دون الدعوة إلى الحلول على غرار بعض المتصوفة الآخرين.

وفي اعـتقادنا أن هـذا الـسلوك الوسـطي مـن المتصوفة محكوم إلى أثر المذهبية الدينـية في الثقافة الليبية. ونقصد بالمذهبية الدينية ما ساد في ليبيا من اعتقادات سماوية؛ يهـودية ومـسيحية وإسـلامية. ولـسنا بحاجـة إلى الحديث مطولا عن المذهبية في ليبيا، بقدر ما نحن بحاجة إلى الحديث عن أثرها في تشكيل الثقافة الليبية.

فمـن المدارس التي أثرت في المجتمع الليبي كانت المدرسة السنية التي انتشرت في شمـال إفـريقيا، ومرت بمرحلتين: الأولى تمثلت في التشبث بمنهج السلف والدعوة للإسـلام، وكـان ذلـك علـى يـد الفـاتحين والفقهـاء الوافدين من المشرق[18]. وعلى يد طـلاب العلـم الرحالة إلى المشرق، والعائدين إلى المدن الليبية. ويعود أثر التصوف في المجـتمع اللـيبي كـذلك إلى جهـود كـل مـن أبـو الحـسن الأندلسي، وفتح الله أبو راس القيروانـي، وأحمد بن أبي عبد الله أبو تليس، وتلميذهم عبد الواحد محمد الدكالي شيخ عبد السلام الأسمر. والمرحلة الثانية تميزت بظهور المتكلمين.

وخـلال المـرحلتين كـان الحـوار والتـسامح وسـيطَ خـير وتقارب بين الفاتحين والـداعين والفقهاء المتكلمين؛ كطرف، وبينهم وبين المجتمع الليبي؛ كطرف ثان. وكانت نقطـة اللقـاء والالـتقاء المسجد، الذي به انتشرت العروبة لغةً وثقافة، مثلما انتشر الإسلام دينا وثقافةً أيضا. فاصطبغت الثقافة المحلية بالعروبة والإسلام وتعايشت في سلام؛ على خـلاف مـا حـدث في بـلاد المـشرق حـين نفـر بعض السكان العرب وغير العرب من الإسلام والمسلمين.

وهذا ما يفسر في رأينا غيابَ بعض الاتجاهات الفكرية والأيديولوجية المتطرفة في الـثقافة الليبـية، وحلت محلها ما يمكن أن يسمى بالمثاقفة، أي العيش في سلام لكل فـئات المجـتمع من دون أن يصادر طرفٌ الآخرَ. لأن المشرق، عرف نزعة العروبة التي

---

=

2003، ص-ص. 125-138.

18- أهم الفقهاء الذين جاءوا من المشرق الوفدُ المتكون من 10 علماء برئاسة إسماعيل بن أبي المهاجر، الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز حوالي سنة 100هـ/778م إلى شمال إفريقيا. للمزيد من المعلومات يراجع: عبد المجيد بن حمدة، المدارس الكلامية بإفريقية، مطبعة دار العرب، تونس 1986، ص. 33 وما بعدها

ارتكـزت علـى الجـنس واللغة كأساس. والنزعة القومية الدينية التي اعتمدت على الدين الإسلامي كأساس.

وهـو مـا يفـسر بـرأينا أيـضا عـدم الظهـور المبكـر لـبعض المفاهـيم كالحداثة والمعاصرة وغيرها في الثقافة الليبية؛ ويفسر كذلك عدم ظهور الطائفية الدينية، والطائفية العـرقية في المجـتمع اللـيبي. ومـن ثمّ تجنب المجتمع الليبي الصراعات الدموية نفسها التي عاشتها وتعيشها مجتمعات في جهات أخرى.

مـثلما يفـسر عدم انتشار المذهب الحنفي فيما بعد، والذي كان المذهب الرسمي للدولـة في ليبـيا، لأن المعاملات في الأحوال الشخصية استمرت على المذهب المالكي بـتأثير المـساجد والـزوايا، والأباضـية. لأن الـزوايا والمنارات هي التي حافظت من جهة أخرى على منهج المدرسة المالكية تدريسا وإفتاء.

وكـان المـذهب الـسني الأشـعري هو الأقوى (أبو الحسن الأشعري ت 330هـ/ 945م) وهـو مـذهب وسـطي بين غلو المعتزلة في اعتماد العقل، وبين المكتفين بالنص مـن علمـاء أصـول الـدين وعلم التوحيد؛ أو الفقه الأكبر في الالتزام بالنقل[19]. إذ انتشر المذهب الأشعري في البلاد الإسلامية مغربا ومشرقا. وبه صارت الثقافة الليبية في جانبها الغالب ثقافة فقهية سنية. وهو ما عمل به عبد السلام الأسمر.

واهـتم علمـاء الفكـر الـسني بـرواية الحـديث والتدوين واستنباط الأحكام ونشر الدعوة الإسلامية، لهذا يمكن اعتبارهم الأقرب إلى الحوار، والتسامح؛ خلاف فرق الشيعة علـى يـد عـبد الله الداعـي في شمـال إفريقيا، ومنها الإسماعيلية على يد جعفر الصادق بدايـة مـن عـام 128هـ/745م. والخوارج على يد سلمة بن سعد[20]. والمعتزلة على يد واصـل بـن عطـاء 131هـ/748م الـذين اهتموا بإثارة القضايا العقلية، وفتح باب الجدل الواسـع. لهـذا كانـت الـثقافة الليبـية في جانـبها المـشدود إلى الفكر السني أكثر تسامحا وحـوارا ومجادلـة بـالتي هـي أحـسن، عمـلا بالـشريعة المحمديـة، وبما أنزله الله تبارك وتعـالى من آيات مقدسة مثل: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: 125]، وكذلك:

19- وإن كان يشهد للحارث بن أسد المحاسبي المتوفى عام 243هـ/936م بأنه أول من أصّل المذهب الكلامي المستند على القرآن الكريم والحديث الشريف.

20- الأباضية نسبة إلى عبد الله بن أباض. وإن كان هذا المذهب تأسس على يد جابر بن زيد الأزدي، وانتشر على يد سلمة بن سعد.

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: 46]. وأيضا: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: 125]. وسلوكا من أفراد المجتمع الليبي الذي جبل على هذا.

فالرشد إلى هذا، والعمل به هو الذي يفسر قلة الصراعات المذهبية والسياسية في ليبيا، قياسا بما حدث في بعض بلدان المشرق. ومن ثمة تكون الثقافة الليبية قد ساهمت في تشكيل ضمير جمعي، وتواصل فكري، من دون قطيعة تاريخية، وما حدث من اختلاف وقطيعة خلال مراحل معينة إنما كان في رؤى ومواقف وممارسة بعض الأفراد، أي أنه بهذه الثقافة ومثمناتها لم يعرف المجتمع الليبي القطيعة السوسيولجية بين فئاته خلال سيرورة التاريخ، الأمر الذي جعله يصمد بقوة ودائما أمام كل دخيل أراد مصادرة الشخصية الليبية.

وتضاعف التسامح أكثر في ليبيا بفعل مواقف الزوايا التي كان أغلبها بيد الطرقيين، إذ إنه لم يتخرج من هذه الزوايا عبر مراحل نشاطها لصوص ومجرمون، بل تخرج منها رجال العلم والصلاح، ورجال العرفان والفلاح. وكان لعبد السلام الأسمر ولمنارته دور هام في نشر محبة السلام والوئام.

والثقافة الليبية مشدودة أيضا إلى شريحة مذهبية إسلامية، هي مذهب الأباضية. إذ برغم إقرار كثير من الدارسين بـ« أن سمات الخوارج البارزة، هي التشدد في الدين وعدم التسامح، والانقطاع للعبادة حتى عرفوا بوجوههم الصفراء، وجباههم المعفرة من كثرة السجود»[21] إلاّ أن المجتمع الليبي المتمثل في هذه الفئة الأباضية كان متحضرا،

21- عبد المجيد بن حمدة، المدارس الكلامية بإفريقية، ص. 70

تاريخيا يتأكد أن الخوارج تعصبوا للدين وبالغوا فيه؛ إلى درجة أنهم في كثير من الأحيان لم يتسامحوا مع السنيين ولا مع الشيعة. ولم يتسامح هؤلاء معهم أيضا، الأمر الذي أدى إلى أن ينكل كل طرف بالآخر، حيث رأى الخوارج أن بداية التنكيل كانت على يد على بن أبي طالب، وعلى يد الحجاج بن يوسف الثقفي المتوفى عام 78هـ 697م وعلى يد غيرهم فيما بعد. ومنذ هذا التاريخ احتفظ الأباضيون بمقومات ثقافية متميزة، وأخذوا العبرة من التاريخ. ولعلّ هذا ما يفسر مواقفهم في ليبيا مع من يحيط بهم ومع الأتراك العثمانيين والفرنسيين حين تسالموا معهم من دون أن يستسلموا.

ومن الناحية التاريخية يكون من الصعوبة بمكان الحديث عن التسامح والحوار في علاقات هذه المذاهب فيما بينها؛ بينما يمكن الحديث عن أللاتسامح فيما بينها. ومن هنا فالحديث عن التسامح والحوار يجرنا بالضرورة إلى الحديث عن اللاّتسامح والمصادرة. ونلمس هذا في الشواهد التاريخية =

ومتسامحا، ومجادلا بالتي هي أحسن، ومتضامنا مع بقية المسلمين. أي أن نشر السلام والوئام والتعاضد لم يكن داخل المجتمع الليبي فقط، بل تعدى الأمر من ليبيا إلى مجتمعات الأمة الإسلامية، ومن الأدلة على ذلك نذكر ما حدث بين الجزائريين والليبيين من تضامن، إذ قدم سليمان الباروني النفوسي (توفي في الهند عام 1940) إلى غرداية /الجزائر، واتصل بالشيخ محمد بن يوسف طفيش للتزود بالعلم، ومن أجل توحيد صف المسلمين.

وفي تقديرنا أن عامل التسامح الليبي هو الذي جعل كثيرا من الشيوخ الجزائريين يستقرون في ليبيا، ومنهم الشيخ محمد بن سعيد الهبري، وهو من مواليد مستغانم، ودفين طرابلس عام 1682، والشيخ محمد بن علي السنوسي الخطابي[22] الذي يعتبر مؤسس الطريقة السنوسية، بعد أن انطلقت حركة صوفية زاهدة بشيخها القطب محمد بن يوسف السنوسي، وصارت ذات نفوذ كبير في الصحراء الكبرى الممتدة من الجزائر إلى ليبيا.

ومن جهة أخرى لا يعني أن علماء الفقه كانوا في وفاق دائم مع شيوخ العرفان، لأنه كان لبعض علماء الفقه موقف عدائي ضد المتصوفة. والسؤال الذي يمكن طرحه هو كيف كان موقف الفقهاء من الشيخ عبد السلام الأسمر؟

---

=

التي كانت في الحروب السياسية الكثيرة. وبالتنكيل في حق كثير من العلماء وفيما لحق التراث من تلف؛ ولعل ما ذهب إليه عبد المجيد بن حمدة، المرجع نفسه، في صفحة، 31 بقوله يناسب هذا المقام: «وأسباب ضياعها (مؤلفات العلماء) عديدة، لعلّ أهمها سيطرة الشيعة الإسماعيلية... على كل مؤسسات البلاد، وقد عذبوا علماء السنة ونكّلوا بهم، وأتلفوا تراثهم».

والواقع التاريخي يشهد كذلك على أن التنكيل لم يكن من الشيعة، فقط وإنما كان من المعتزلة أيضا ضد السنيين، لا سيما حين ناصر المأمون رأي المعتزلة حين قالوا بخلق القرآن الكريم. ونتج عن ذلك أن تعرض أحمد بن حنبل إلى امتحان عسير. والتنكيل كان من السنيين كذلك، وفي مقدمتهم الإمام الشافعي حين كفر كل من يقول بخلق القرآن.

والدارس لفكر هذه المذاهب يتأكد له أن حظ التسامح والحوار يقل عند كل منهما تجاه الآخر؛ باعتبار أن الفكر عند الشيعة يقوم على الإمامة أساسا، بينما هو عند الخوارج يقوم على الإمامة غير المشروطة في البيت العلوي أو القرشي. وعند السنيين يقوم على وجوب الخلافة.

22- هاجر محمد بن علي السنوسي من مستغانم إلى المغرب الأقصى، وإلى تونس، ثم مصر، والحجاز، واستقر به المقام في مدينة البيضاء الليبية حيث أسس بها أول زاوية له عام 1843. ثم استقر في مدينة جغبوب بالصحراء الليبية وجعلها عاصمة لطريقته. فكان لزاويته دور هام في إثراء الثقافة الدينية الروحية الليبية.

## رابعا: مكانة الحياة الروحية وجهود عبد السلام في الثقافة الليبية

بعد أن تمكن عبد السلام الأسمر من إحداث طرق تعليمية غير مألوفة، وعلاقات اجتماعية جديدة، أثار حفيظة كثير من شيوخ المساجد التقليديين، واتهموه بالشعوذة والخروج عن الدين، فما كان منه إلا أن لجأ إلى الريف، وحاول كسب ود شيوخ القبائل، لكنه لم يحظ بوفاق موسع.

وتجنباً لمضايقتهم رحل الشيخ إلى مدينة طرابلس، التي كانت بيد كبار التجار المسرفين، خاصة منذ أن انفصلت طرابلس عن الدولة الحفصية عام 866هـ/1460م، فانتقدهم عبد السلام الأسمر بقوة، وأثار ضدهم الناس، فما كان من هؤلاء التجار وبمعية قاضي المدينة إلا العمل على نفيه من مدينة طرابلس. لكن أفكاره الإصلاحية ظلت قناعةَ الناس، ثائرةً ضد الحكام والأعيان المترفين.

وبقي الحال هكذا إلى أن اهتدى حاكم مدينة طرابلس إلى استرضاء عبد السلام الذي اعتزل في أعالي الجبال، وخيره أن يستقر بأمان في أي مدينة، فاختار مدينة زليتن مسقط رأسه، وعاد إليها بعد غياب دام خمس سنوات. ومنها ومن الزاوية التي أسسها عام 900هـ واصل نشاطه الصوفي الروحي، والتعليمي العلمي، والإصلاحي الاجتماعي، إلى أن توفي عن عمر يناهز المائة عام. وبقيت آثاره الإصلاحية إلى اليوم، وستبقى بإذن الله تعالى.

ولهذا يمكن القول إن الفكر الليبي في بعده الروحي-الصوفي، وانطلاقا من الزاوية /المنارة يعدُّ أحد مضامين الثقافة الليبية؛ وأحد مشكلات الحضارة العربية-الإسلامية، والحضارة الإنسانية في المجتمع الليبي. وهذا بفعل مساهمات شخصيات كثيرة أمثال عبد السلام الأسمر.

هذا، ويمكن أن يؤرخ لبدايات الميل إلى الحياة الروحية الصوفية في بلاد المغرب عامة بسلوكيات البهلول بن راشد الذي كان أحد طلاب العلم حين رحل إلى المشرق من بلاد تونس وعاد إليها[23]. وكذلك -مثلما سبق ذكره- أن التصوف في

---

23- يقول عبد المجيد بن حمدة: «وللبهلول دور كبير في المدرسة السنية، إذ نحا بها منحى التصوف المبكر، فكان الناس يتبركون بدعائه»، يراجع: المدارس الكلامية بإفريقية، ص. 37.

وممارسات التصوف الأولى في البلاد الإسلامية بدأت مع كل من إبراهيم بن أدهم عام 162هـ =

المجتمع الليبي يعود إلى جهود كل من أبي الحسن الأندلسي، وفتح الله أبو راس القيرواني، وأحمد بن أبي عبد الله أبو تليس، وتلميذهم عبد الواحد محمد الدكالي شيخ عبد السلام الأسمر.

ولسنا بصدد الحديث عن مصدر التصوف وعن أمر حاله، وعما يكون دخيلا يونانيا، أو فارسيا، أو هنديا، أو مسيحيا، أو غيره، إنما المؤكد أن التصوف وجد في البلاد الإسلامية، عامة. وفي ليبيا خاصة الأرضَ الخصبة. الأمر الذي يجعلنا نميل إلى قناعة وهي أن التصوف حياة روحية لا بدّ وأن تتعايش مع قواعد النفس الطبيعية، وعبر العصور، بغض النظر عن مواطن الأجناس وفترات وجودهم وميولهم العقدية.

وبداية من القرن الثامن الهجري يمكن القول إن التصوف جنح إلى الدجل والشعوذة في بلاد كثيرة. فبعد أن كان التصوف نزعة تنأى بالإنسان عن ملذات الدنيا صار خرافة ومكسب رزق. إلى درجة أن صارت كلمة العقيدة تنسب إلى الشيخ فيقال: عقيدة الشيخ كذا. وقد صدق الهجويري حين قسم طبقات الصوفية إلى صوفي ومتصوف ومستصوف حيث قال: « فالصوفي هو صاحب الوصول، والمتصوف هو صاحب الأصول والمستصوف هو صاحب الفضول». وبناء عليه « فالمستصوف عند الصوفية كالذباب، وعند غيرهم كالذئاب »[24].

لأنه وفقا لقواعد النفس والروح والعقل؛ فإن إدراك الأمور كان يتفاوت من شخص إلى آخر، ومن قاعدة العقل إلى قاعدة الروح، فعندما يعجز العقل عن معرفة الحقيقة الإلهية تكون النفس والروح أكثر قدرة على إدراك هذه الحقيقة بالمجاهدة والكشف والتجلي، والوصول إلى هذا المستوى لا يقدر عليه المستصوف.

---

=

وأبو داوود الطائي 165هـ، ورابعة العدوية 185هـ وغيرهم، وهو تصوف زهدي ثم تطور ليغوص في الروحانيات بداية من القرن الثالث الهجري، وعن طريق ذي النون المصري (ت245هـ) الذي وضع أسس علم التصوف وطورها بعده الجنيد البغدادي 297هـ. وكانت آراء ذي النون الفتيل الذي أشعل النار أكثر بين المتصوفة والفقهاء السنيين، وأدت إلى مقتل الحلاج عام 309هـ. وانتشر التصوف أكثر بظهور أقطاب أمثال عبد القادر الجيلالي 562هـ/1167م، وعبد السلام بن سليم الأسمر الفيتوري.

24- الهجويري، كشف المحجوب للهجويري، ترجمة وتعليق إسعاد عبد الهادي قنديل، ج. 1، 2، دار النهضة العربية، بيروت 1980 ص. 231

ومن باب التقويم يمكن القول إن هذا اللون من الفكر الروحي الصوفي انطلق في بداية عهده إلى المناجاة للوقاية من عذاب الدنيا والآخرة. لكنه بداية من القرن الثالث الهجري تطور إلى المناجاة وطلب المعرفة، خاصة على يد ذي النون المصري المتوفى عام 245هـ. وتطور من جانب آخر إلى المناجاة والحلول والفناء، أي؛ حلول الله في مخلوقاته، مثلما كان الحال عند الحلاج. أو وحدة الوجود القائمة على أن ذات الإنسان وذات الله واحدة، مثلما كان الأمر عند ابن عربي المتوفى عام 638هـ بحسب بعض الآراء التي فيها خلاف.

فتكون هذه المناحي الروحية قد خالفت المناحي الفلسفية التي سلكت طريق التأمل العقلي لبناء قواعد فكرية يطبعها المتأمل عمليا. في حين أن المنحى الروحي الصوفي ينطلق من العمل التعبدي القائم على الذكر والزهد والمجاهدة إلى التأمل الباطني. بينما الفكر الروحي الفقهي ينطلق من نص جاهز قائم على التوحيد، أي على لا إله إلاّ الله.

وقد انتشر هذا اللون من الفكر الروحي الصوفي التعبدي القائم على الذكر في ليبيا، سواء في الريف أو في المدينة. فمدينة زليتن عرفت حركة فكرية روحية عميقة بإسهامات كبار المتصوفين الذين أقاموا بها أمثال عبد السلام الأسمر بمنارته، أو الذين مروا منها.

ولا يرتبط التصوف في الإسلام بمظاهر الكهنة والرهبانية، لأن الإسلام لا يسمح بوجوب الصلة بين المخلوق والخالق، ويدعو إلى أن يتوجه العبد إلى الله بضميره بغير وساطة. وكان عبد السلام الأسمر يعمل بما يدعو إليه الإسلام. فيكون عبد السلام الأسمر قد حمى الثقافة الليبية في جانبها الروحي من التصوف الدخيل الغربي.

ويرى عباس محمود العقاد أن البعد الروحي الحقيقي للتصوف، يقوم على مدى مراعاة مزية الإيمان بالله، حتى ولو كان للصوفية معنى مجردا من هذا الإيمان: « وكذلك الصلة بين الصوفي وربه إنما هي صلة قائمة على المحبة لا على مجرد الطاعة لأوامره والخوف من نواهيه، فإن المحب يعطي من عنده فوق ما يؤمر به ولا ينتظر العقاب ليستجيب إليه وكلهم يقول مع رابعة العدوية: اللهم إن كنت تعلم أنني أعبدك طمعا في

جنتك فاحرمني نعيم جنتك، وإن كنت تعلم أنني أعبدك رهبة من نارك فعذبني بنارك »[25].

وكـان المـرابطون الطرقيون نعمة على المجتمع الليبي بإشرافهم على المؤسسات الثقافية التعليمية، وبفضهم النزاعات، وفرض التسامح بين أفراد القبائل. وكانوا أيضا نقمة علـى المجـتمع بمـا أحدثوه من صراعات محلية فيما بينهم، ونشرهم لشيء من الخرافة والـشعوذة. وقـد اتخذ هؤلاء المرابطون الطرقيون من الزاوية العاصمة الثقافية والسياسية والإدارية لنظام حياتهم الروحية. فصارت الزاوية موطن تعليم ديني، ومقر أمن للمظلوم، وملجـأ للفقـراء، ومـسكنا للطلـبة والغرباء، ومؤسسة إدارية اقتصادية واجتماعية، وفضاء للذكـر وتلقيـنه، ودافـع حـشد للناس للجهاد، ووسيلة حد لعنجهية البداوة، ووسيط خير للناس، وفي هذا السلوك الحضاري الذي قامت به الزاوية تكمن مظاهر الثقافة الليبية.

فـتكون الطـرقية وحـدت أكثـرية المجـتمع اللـيبي روحـيا، وهو ما عجزت عنه الـسلطة العثمانـية التركـية. لأن « الطـرق الـصوفية لهـا نظـام إداري، يـشبه الـنظم الإدارية للحكومات لذلك العهد، ولا سيما فيما يتصل بالمناصب وجباية المال، وتسخير الأتباع في اسـتثمار الأراضـي والعقـارات المحبوسة على زوايا الطريقة، وكذا فيما يتصل برعاية الأتباع وتسييرهم أو حكمهم، كما أن للطرق أسرارا كأسرار الدولة، لم يكن يطلع عليها سوى الذين يتولون شؤونها من رجال الطريقة »[26].

والـدارس لمـراحل الحكـم في تـاريخ البلاد العربية الإسلامية يتبين له أن صراعا حـدث بـين كـثير من الفقهاء العلماء وكثير من المتصوفة الطرقيين، في الوقت الذي كان فـيه حكـامٌ (جهلـة) يـسيرون الـبلاد، ليست لهم صلة قوية بعمق الحضارة الإسلامية في بعـدها الـديني والثقافي واللغوي، الأمر الذي أدّى إلى ظهور العلماء كفئة متميزة ليسدوا الفـراغ كمستـشارين ومشرعين ومفسرين. وأصبح شعار العلماء أنهم هم (حماة الدين) و(مـصابيح الظـلام). مـثلما ظهـر الطـرقيون على الساحة الاجتماعية بقوة، بينما لم يكن الأمـر كـذلك حين كان الحكام علماء والعلماء حكاما. وقد جاء عبد السلام الأسمر في مـرحلة كـان يحكـم فـيها حكـام (جهلة)، وأعني بهم من كان يتولى أمر البلاد من كبار التجار المسرفين الذين انفصلوا عن الدولة الحفصية، ومن رجال النظام العثماني.

---

25- عباس محمود العقاد، المرجع السابق، ص. 114.

26- مسعود العيد، المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني، سيرتا، العدد 10، مجلة يصدرها معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، الجزائر 1988. ص. 19

ولعل كون الحكام العثمانيين في ليبيا غرباء عن الثقافة العربية، وعن تاريخ الحضارة الإسلامية، وعن التشريع الإسلامي، هو الذي جعلهم كولاة وسلاطين، يستأثرون بشؤون الحكم من سياسة واقتصاد وجيش وإدارة، تاركين القضايا الأخرى التي لها مساس مباشر بالدين في أيدي فئة أخرى هي فئة العلماء وأنصاف العلماء، والقضايا الأخرى التي لها مساس بالحياة الاجتماعية في أيدي شيوخ القبائل وشيوخ الطرق.

وبهذا تشكل الطرقية محورا هاما في الثقافة العربية الإسلامية في ليبيا. وعن طريقها كان اهتمام الليبيين بالمساجد وبالمدارس والزوايا، وبالكتب والمكتبات والوقف، والرحلات العلمية إلى خارج ليبيا. وكان لشيوخ الطرق من الولاء الشعبي ما يضاهي بل يفوق الولاء العام لنظام الحكم القائم. وهم الذين كانوا الأكثر تسامحا مع غيرهم. وكان تسامحهم الروحي في هذه المرحلة بدعوة العبد إلى الابتعاد عن ملذات الدنيا، والعمل في حرية بالعبودية من دون أن « يَمْلك، أو يُمَلّك، أو يُملَك»، والابتعاد عن ممارسة الصنائع والإبداع العلمي والمعارف العقلية، ولعل هذا ما يفسر غياب المشاريع الصناعية والمنشآت العمرانية، آنذاك. وعلى هذا الأساس يكون هذا الفكر الروحي قد ساهم في إسكان الواقع بميله إلى الغيب، وتسليمه بالقضاء والقدر. وباستمرار الحياة على هذا المنوال سهل على الغزو الخارجي أن يحقق جزءا كبيرا من مشاريعه باحتلاله ليبيا مثلا.

وكان موقف عبد السلام الأسمر قائما على الشريعة الإسلامية، وعلى الحياة الروحية الصوفية السنية بالدعوة إلى التسامح، لأن نظرة المتصوفة إلى الناس كلهم على أنهم عيال الله. ونلمس هذا في سلوكياته تجاه شرائح المجتمع الليبي، المستمدة من القيم الإنسانية القائمة على التعامل الخيّر بين كل الناس. لأنه على ما يبدو أن قناعة عبد السلام الأسمر مستمدة أيضا من القيم الفلسفية القائلة بأن الإنسانية تدل على المعنى الكلي المجرد الذي تقوم به ماهية الإنسان. ومن غير المستبعد أن يكون عبد السلام الأسمر قد اقتنع بعض الشيء بالبعد الفلسفي الروحي القائل بأن للإنسانية ثلاثة معان، الأول، هو المعنى الكلي الدال على الخصائص المشتركة بين جميع الناس، وفي مختلف بقاع الأرض، ونفهم هذا من محبته لكل الناس بغض النظر عن الفروقات البيولوجية، والمعتقدات النفسية. والثاني هو مجموع خصائص الجنس البشري التي تميزه عن غيره من الأنواع الأخرى. وعلى هذا الأساس يقوم الشرط في تطوير الإنسانية على ضرورة

تغلب الجانب الإنساني في الفرد أو في الجماعة على الجانب الحيواني فيه[27]، ولا يكون ذلك إلاّ بالعلم والمعرفة[28]، يتأكد هذا باهتمامه في تأسيس منارة وفي تشجيع التعليم فيها. والمعنى الثالث هو حول الإنسان الكامل الذي هو فوق كل الناس كالأنبياء والرسل. ومن غير المستبعد أن يكون عبد السلام انطلق من هذه القناعة الفلسفية الروحية. ونلمس هذا في شواهد كثيرة من مراسلاته. فقد أوصى عبد السلام مريديه بقوله: وأوصيكم بالحرص على طلب العلم النافع قراءة ومطالعة ومذاكرة، لأن علم الدين أفضل ما يحوزه العبد من المراتب العليا، وأشرف ما يكتسبه العبد من المناقب السنية.. إن تعلم العلم فرض عين، وفرض كفاية. والعلم هو علم التوحيد، وعلم التصوف، وعلم الشريعة[29].

بجانب مراسلاته الأخرى الهامة ومنها الوصية الكبرى، والصغرى، والوسطى. ومن غير المستبعد أن يكون عبد السلام قد تأثر بالإمام محمد بن يوسف السنوسي، إذ قال عبد السلام « عليكم بالتوحيد، وهو مذهب الأشعري، والسنوسي »[30].

كان عبد السلام متأثرا بأقوال الشيخ أحمد زروق، ومنها قوله: « ولا بد في طريق المعرفة من شيخ ناصح، أو أخ صالح. فإن المجاهدة ثلاثة؛ مجاهدة التقوى، والشيخ فيها شرط كمال. ومجاهدة استقامة، والشيخ فيها شرط صحة. ومجاهدة كشف، والشيخ فيها شرط وجوب »[31].

فيكون عبد السلام الأسمر أشعريَ العقيدة، مالكي المذهب، سالكا طريق سلفه الصالح الإمام السنوسي؛ رحمهم الله جميعا. لأنه تعلم القرآن الكريم على شيخه علي بن عثمان الفيتوري، ثم تشبع بأخلاق التصوف في زاوية الدكالي، على الطريقة العروسية التي هي فرع من الشاذلية، ومن منظرها الشيخ أحمد زروق. بعدها تجول سائحا زاهدا في مناطق كثيرة، ينشر الحب بين الناس والتسامح، وختم حياته مربيا، مصلحا،

---

27- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج. 2، الشركة العالمية للكتاب، بيروت 1982 ص-ص. 158-159

28- المعرفة عند المتصوفة هي المعرفة بالله، وفي الله، وعن الله.

29- لمزيد من المعلومات يراجع: مصطفى عمران رابعة، رسائل الأسمر، دار المدار الإسلامي، بيروت 2002، ص-ص. 236- 238

30- لمزيد من المعلومات يراجع: مصطفى عمران رابعة، ص. 204

31- لمزيد من المعلومات يراجع: مصطفى عمران رابعة، ص. 45.

وتخرجت على يديه أجيال من أهل العلم والعرفان.

وفي مدينة زليتن انكب على إصلاح البلاد، وتعليم العباد، وذلك ببناء زاويته، التي هي منارة للتربية الروحية والعلمية، حيث قام بتحفيظ القرآن الكريم لصغار السن، وبتعليم مباحث العقيدة الإسلامية؛ من فقه وتفسير لكبار السن، في حلقات. بجانب إقامة الحضرة بالذكر والسماع الصوفي.

فيكون عبد السلام بهذا الإجراء قد كرس تربية روحية بالتصوف الإسلامي السني، وتربية علمية بالتدريس، بجانب ما أحدثه من علاقات اجتماعية أقامها بالدعوة إلى التسامح بين المتخاصمين؛ أفرادا وجماعات. فازدادت محبة الناس فيه، وصارت زاويته موئل طلاب العلم، وحماية للناس.

والمشهور عن الشيخ عبد السلام أنه كان يحمل معولا من شجر الزيتون ذا أربعة وجوه، مكتوب على الوجه الأول العبارة الآتية: بسم الله الكافي. وعلى الوجه الثاني عبارة: الغني الفتاح. وعلى الوجه الثالث عبارة: الرحمان الباقي. وعلى الوجه الرابع عبارة: الرحيم الرزاق.

ويمكن اعتباره مصلحا اجتماعيا، لأنه من المؤكد أن تكون قضايا كثيرة مطروحة في المجتمع الليبي، ومن غير المستبعد أن تكون له مواقف تجاهها، فمثلا كان موضوع الطاعون شغل الشاغل لكل البشرية، لهذا دعا عبد السلام إلى الوقاية منه. وهو بهذه الدعوة يكون قد سبق بعض الفقهاء الذين رفضوا التداوي والوقاية من هذا المرض، بحجة أنه قضاء وقدر.

مما سبق نخلص إلى القول إن الثقافة الليبية تشكلت تاريخيا بتفاعل ثقافات متعددة. وكان للزاوية حضور فاعلٌ في تطور هذه الثقافة. إذ إنها تعد موطن تعليم ديني، ومقر أمن للمظلوم، وملجأ للفقراء، ومسكنا للطلبة والغرباء، ومؤسسة إدارية اقتصادية واجتماعية، وفضاء للذكر وتلقينه، ودافع حشد للناس للجهاد، ووسيلة حد لعنجهية البداوة، ووسيط خير للناس.

عاش عبد السلام الأسمر في محيط اجتماعي تحركه عوامل محلية متمثلة أساسا في الجانب الروحي والديني المحكوم إلى أهم الطرق الصوفية وهي العيساوية والعروسية، وإلى أهم المذاهب الدينية وهي المالكية والأباضية.

فكان له دور هام في الحياة الثقافية والروحية الليبية، لأنه كرس تربية روحية بالتصوف الإسلامي السني، وتربية علمية بالتدريس، بجانب ما أحدثه من علاقات اجتماعية أقامها بالدعوة إلى التسامح. فازدادت محبة الناس فيه، وصارت زاويته موئل طلاب العلم، وحماية للناس. وكان من المتصوفة الذين تغلغلوا في ممارسة العبادة، انطلاقا من قناعة مفادها أن العبودية حرية.

وعموما فانشغال المتصوفة بهموم المجتمع من طبيعة منهجهم في الممارسات الدينية، عبر الذكر الجماعي، والزيارات، وإحياء المناسبات الدينية المختلفة، الأمر الذي جعلهم موضع وقار دائم من كافة الناس.

وفي تقديرنا على أنظمة الدول العربية وهيئات الشعوب العربية الاهتمام بالزوايا وبرجالها للخروج من الأزمات التي نعيشها، ولتحقيق تنمية اجتماعية وسياسية واقتصادية.

فالأمن مرهون بتضافر الجهود، ومنها جهود الفكر الصوفي الأخلاقي السني، الرافض للتطرف والعنف، والداعي إلى السلم والمسامحة، والضامن للتكافل الاجتماعي.

## مراجع معتمدة


1. أحمـد مخـتار عمر، النشاط الثقافي في ليبيا، منشورات الجامعة الليبية، كلية التربية، ليبيا 1971
2. احمـيده عمـيراوي، أبحـاث في الفكـر والـتاريخ، دار الهـدى، عـين مليلة – الجزائر 2003.
3. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج. 2، الشركة العالمية للكتاب، بيروت 1982.
4. الـصادق الخونـي، موقـف أبـي زيـد القيرواني من الصوفية، أعمال ملتقى في أفريل 1993، منشورات مركز الدراسات الإسلامية، القيروان.
5. طاهر أحمد الزاوي، أعلام ليبيا، ط. 2، الفرجاني، ليبيا 1971.
6. عيـسى رمـضان القبلاوي، بدايات التخلف في الوطن العربي، منشورات مركز جهاد الليبيين، ليبيا 2005.
7. عباس محمود العقاد، التفكير فريضة إسلامية، مكتبة رحاب، الجزائر.
8. عبد المجيد بن حمدة، المدارس الكلامية بإفريقية، مطبعة دار العرب، تونس 1986.
9. ابن منظور، لسان العرب المحيط، المجلد الثالث، دار الجيل بيروت 1988.
10. مـسعود العـيد، المـرابطون والطـرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني، سيرتا، العدد 10، مجلة يصدرها معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، الجزائر 1988.
11. مصطفى عمران رابعة، رسائل الأسمر، دار المدار الإسلامي، بيروت 2002.
12. الهجويري، كشف المحجوب للهجويري، ترجمة وتعليق إسعاد عبد الهادي قنديل، ج. 1، 2، دار النهضة العربية، بيروت 1980.